مات الرجل العظيم

محمـــــد إقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

في اليوم الحادي والعشرين من أبريل الماضي والساعة خمس من الصباح، في مدينة لاهور مات رجل كان على هذه الأرض عالماً روحياً يحاول أن ينشئ الناس نشأة أخرى، ويسن لهم في الحياة سنة جديدة؛ وسكن فكر جوال جمع ما شاءت له

محمد إقبال

قدرته من معارف الشرق والغرب، ثم نقدها غير مستأسر لما يؤثر من مذاهب الفلاسفة، ولا مستكين لما يُروى من أقوال العظماء؛ ووقف قلب كبير كان يحاول أن يصوغ الأمة الاسلامية من كل ما وعى التاريخُ من مآثر الأبطال وأعمال العظماء؛ وقرّت نفس حرّة لا يحدّها زمان ولا مكان، ولا يأسرها ماض ولا حاضر، فهي طليقة بين الأزل والأبد، خفّاقة في ملكوت الله الذي لا يُحدّ

مات محمد إقبال الفيلسوف الشاعر الذي وهب عقله وقلبه للمسلمين وللبشر جميعاً. الرجل الذي كان يخيّل إليّ وأنا في نشوة من شعره أنه أعظم من أن يموت، وأكبر من أن يناله حتى هذا الفناء الجُماني

فاضت روح الرجل الكبير المحبوب في داره بلاهور ورأسه في حجر خادمه القديم الوفيّ (الاهي بخش) وهو يقول: إني لا أرهب الموت. أنا مسلم أستقبل المنيّة راضياً مسروراً

كنت أقرأ كلام إقبال في الحياة والموت، وأرى استهانته بالحمام، واستهزاءه بالذين يرهبونه. وما كان هذا خُدعة الخيال، ولا زُخرف الشعر فقد صدق إقبال دعوته في نفسه حين لقي الموت باسماً راضياً

جد المرض بإقبال منذ سنة، وكان يقترب إلى الموت وهو متقد الفكر، قوي القلب، يصوغ عقله كلمات يوقظ بها النفوس النائمة، وينثر قلبه شَراراً يشعل به القلوب الهامدة. وكان يعنى بنظم كتابه (آهنك حجاز): لحن الحجاز. وكان قلب الشاعر يهفو إلى الحجاز وقد تمنى في خاتمة كتابه (رموز بي خودي) أن يموت في الحجاز. ومما نظمه في أشهره الأخيرة:

آية المؤمن أن يلقى الردى ... باسم الثغر سروراً ورضا

وقد أنشد هذين البيتين قبل الموت بعشر دقائق، وهما مما أنشأه أخيراً:

نغمات مضين لي، هل تعود ... ونسيم من الحجاز سعيد؟

آذنت عيشتي بوشك رحيل ... هل لهم الأسرار قلب جديد!

وآخر ما أنشأ من الشعر بيتان أترجمهما نثراً:

«قد أعدّت جنة لأرباب الهمم، وجنة أخرى لعُبّاد الحرم. فقل للمسلم الهندي لا تحزن، فكذلك للمجاهدين في سبيل الله جنة»

— ٢ —

كان تشييع إقبال إعرابا رائعاً عما للرجل الفذّ في قلوب أهل الهند عامة ومسلميه خاصة. احتشدت عشرات الألوف تودّعه بالبكاء والزفرات، وشاركت النساء بالعويل والنحيب، وتنافس الحاضرون في حمل النعش فوضع على خشبتين طويلتين ليتسنى لكثير من المشيّعين أن يشرفوا بحمل الرجل العظيم إلى مثواه الأخير. وقد بلغت الجنازة شاهي مسجد وخلفها زهاء أربعين ألفاً، فوقف الناس ساعة كاملة حتى تيسر لهم أن يصطفوا للصلاة على الفقيد الجليل، ثم نقلت الجنازة الى حديقة متصلة بالمسجد. وهنالك والساعة عشر إلا ربعاً من المساء غربت شمس إقبال في جدثها، وطُوي الجهاد الذي ملأ الدنيا في لحده، وأُدرجت الحكمة والشعر والحرية التي تأبى الحدود والقيود في جَنَنها

وضع محمد إقبال في قبره

وغشي القبر الذي تضمن روضة الشعر بضروب الزهر والريحان، ثم نثرت عليه أزهار أخرى من أقوال الخطباء والشعراء الذين أطافوا بالشاعر الخالد

وتجاوبت أرجاء الهند بأقوال الكبراء يعربون بها عما أحسوا من لوعة، وما دهى الهند من مصيبة، بموت شاعرها الأكبر. اجتمع على هذا المسلمُ وغير المسلم؛ فهذا جواهر لال نهرو يقول:

« لقد دهتني وفاة إقبال بصدمة هائلة. شرفتُ بلقاء إقبال

ومحادثته منذ قليل ؛ وكان مستلقياً على فراش المرض ، ولكن كان لفكره العالى ونزعته الحرة فى قلبى أثر بليغ . لقد فقدت الهند بفقد إقبال كوكباً لألاء مضيئاً ، ولكن شعره سيخلد فى قلوب الأجيال الآتية ، وذكراه العظيمة لن تموت »

وهذا الدكتور محمد عالم يقول :

« لا تستطيع أرض البنجاب أن تخرج إقبالاً ثانياً فى عصور طويلة» . ويضيق المجال عن الإكثار من أقوال أعلام الهند فى فقيدهم

وأرخ بعض الشعراء وفاة إقبال (سنة ١٣٥٧) فى قوله :

تاريخ « بور إقبال شاعر مشرق » — كان إقبال شاعر الشرق . وأرخ آخر بقوله : كنه علامة إقبال سوى بهشت برين : ذهب العلامة إقبال شطر الجنة العالية .

ترك الشاعر النابغة ابنين وبنتاً وأخاً وثلاث أخوات

— ٣ —

ولد محمد إقبال فى سيالكوت سنة ١٨٧٦ م من عشيرة قديمة دخلت فى الاسلام منذ ثلاثة قرون ، وكانت تقيم فى كشمير ثم اضطرتها الحوادث أن تهاجر إلى البنجاب واستقرت أسرة اقبال فى سيالكوت

وبدأ تعلمه فى البلد الذى ولد به ، ودرس على العالم الكبير مير حسن فأذكى فى قلبه حب الآداب الشرقية . ثم انتقل إلى لاهور للدراسة العالية فكان من أساتذته السير توماس ارنولد أستاذ الفلسفة الاسلامية . وقد سمعت أرنولد يفخر بأن اقبالا تلميذ . وفى ذلك الحين شدا اقبال الشعر ، فرجا الناس فيه شاعراً خطيراً . ونال درجة أستاذ فى الأدب (M.A) وصار مدرس الفلسفة فى إحدى الكليات

وسنة ١٩٠٥ م سافر إلى أوربا فتعلم فى كمبردج القانون ، ثم ذهب إلى ألمانيا فدرس الفلسفة . وبعد ثلاث سنين من خروجه من وطنه رجع إليه مرجوًّا لأمته محبّباً إليها . وعمل فى المحاماة وقصده الناس لاستشارته والاستعانة به فى كثير من الأمور التى كانت تهمّ المسلمين . وما زال نجمه يسطع ، وصيته يذيع ، وشعره يجوب أرجاء الهند ويستقر فى كل قلب حتى اجتمعت قلوب المسلمين عليه ، ورددوا أقواله فى خطبهم ومقالاتهم ، وتغيّلوه فى أعمالهم ، وكأنما أذكى الشاعر العبقرى فى كل قلب جذوة ، وملأ كل رأس فكراً ، وكل نفس حرية وعظمة ، حتى مات وكلٌّ ينشبه به ، ويطمح إلى أن يكون من المهتدين بهَدْيه

وسأعود إلى الكتابة عن فلسفته وأدبه ان شاء الله

والله يعوض الأمم الاسلامية ويعزّيها عن اقبال بالاستجابة لدعوته والسير على أثره

عبد الوهاب عزام

من رسائل الفن

منذ عشرة أعوام عُقدت معاهدة على جبل « أولب » بين « أبولون » و « كوبيدون » تتعلق بى . ولا أعرف على وجه التفصيل نصوص تلك المعاهدة . فلقد كانت معاهدة سرية . ولكن يخيل إلى أن « آلـه الفن » أراد أن يعتبرنى من « مناطق نفوذه » ، فحرم على إلـه «الحب» أن يلقى سهما واحداً من قوسه الذهبى إلى هذه المنطقة . وقد تبين لى فى مواقف كثيرة من حياتى أن إلـه « الحب » قد احترم حقاً هـذه المعاهدة . وفى أحيان أخرى رأيت كأن « كوبيدون » ينظر إلى « قلبى » نظرات ملؤها الطامع الاستعمارية ، وأنه يتحين الفرص والظروف . وإلـه الفن ، كما هو معلوم ، ينادى دائماً بالحرية ، إذ لا فن بغير حرية مكفولة فى كل زمان . وإلـه الحب ينزع إلى السلطة والسيطرة والعنف والتقييد بالسلاسـل والأغلال . ولست أدرى لـماذا يذكرنى هذا الصراع بينهما بالصراع القائم بين « انجلترا » و « ايطاليا » ؟ فانجلترا بلد الديمقراطية والحرية ، وايطاليـا رمز الدكتاتورية والسلطة المطلقة . ولقد وقع حديثاً نزاع بين الطرفين ، فأغفلت المعاهدة وألقيت السهام ، وأعلن الدكتاتور أنه افتتح المنطقة «الحرام» . فلم يعترف له منافسه بهذا الفتح . وسارت الأيام سيرها وأنا راض مطمئن اطمئنان « النجاشى » المسكين ، إلى أن قرأت فى البريد الأخير أن انجلترا ستحمل العالم على الاعتراف بالفتح الايطالى « للحبشة » ، فوضعت يدى على « قلبى » وأدركت أن « الحرية » الجميلة ليست إلا حملا ضعيفاً تنتظره دائماً أنياب الذئب ، وأن « المعاهدات » ليست إلا « محطات » انتظار لساعات الوثوب

توفيق الحكيم